القيم الغربيّة: حكاية السيّد الذي أطاح به خادمه[1]

ألستير كروك[2]

ترجمة محمود يونس

الكلمات المفتاحية: ألستير كروك، محمود يونس، القيم الغربية، المعرفة، ماكغيلكريست، المعنوية، العقل.

توحي الأسطورة بتبلور جانب واحد من جوانب اشتغالنا الذهنيّ –مع مرور الزمن– ليتطوّر إلى نظام طاغٍ منغلق على الذات، نظام يقفل كلّ آليّات التفلّت الممكنة، لقد هندس الخادم إطاحة سيّده.

ليست الأساطير، في الحقبة الماقبل سقراطيّة، مجرّد حكايا، عن الفانين والخالدين، يكمن فيها المعنى في رواية السرد. بل هي تنبني على ملاحظة ثاقبة للعالم من حولنا. وقد عمد أمبذوقلس إلى الطوبوغرافيا التفصيليّة لبركان صقليّة، مستخدمًا إيّاها كمجاز يعبّر بواسطته عن الفهم المضمر implicit للعالم الآخر، والذي يتعذّر الوصول إليه بالتوصيفات الصريحة explicit.

على نحو متّصل، تقدّم إيان ماكغيلكريست، العام الماضي، بقراءة عصبيّة–سايكولوجيّة للدماغ البشريّ، ولنصفَيه اللامتناظرين[3]. وكما الأساطير السابقة، فإنّ الكاتب يلجأ إلى ملاحظاته التفصيليّة حول قسمَي الدماغ ليوحي بأنّ البنية الداخليّة للعقل تنطوي، بنحو، على ما نشهده من اللاتناظر العميق في عالمنا، وأنّ هذا اللاتناظر – والانقسام– يحمل مغازٍ عميقة لنا. ويحكي لنا –فيما خصّ دماغنا– ما كانت الهرمسيّة تحاول إخبارنا به لآلاف السنين؛ أنّ الإنسان، في علاقته مع الكون، أو العالم الكبير، هو بمثابة عالَم رمزيّ صغير.

لكن، إن كان كلّ نصف من الدماغ يقدّم رؤيةً، أو نسخة، مختلفة ومباينة عن العالم، بل متعارضة، فليست وظيفتهما، إذًا، أن يكونا وسيطين. ومع هذا، ففي كلّ نسخة شيء من الأصالة. عليه، لماذا كان الدماغ منقسمًا، وبهذا الوضوح والعمق؟ وما هو هذا الذي يقوم به نصفا الدماغ بحيث يبلغان في الاختلاف حدّ الانفصال؟ يبدو أنّ

---

[1] ورقة قُدّمت في المؤتمر الدوليّ الذي أقامه معهد المعارف الحكميّة حول **التجديد والاجتهاد الفكريّ عند الإمام الخامنئي**، في بيروت، في السادس والسابع من حزيران 2011.

[2] مؤسّس منتدى النزاعات، ومديره الحاليّ.

[3] Iain McGilchrist, *The Master and His Emissary* (Yale University Press, 2009).

الفارق يكمن في السؤال عن الـ"كيف"، لا في السؤال عن الـ"ماذا". وأعني بذلك "النحو الذي من خلاله"؛ نحو الوجود الخاصّ بكلّ نصف.

أمّا المائز الأساسيّ، من حيث التكوين العصبيّ، فهو، يقول المؤلّف: "يكمن في نوع العناية التي يوليها كلّ نصف للعالم". ولعلّ هذا الإبهام في الرؤية ينبئنا بأمر ما وثيق الصلة بطبيعة الواقع. ولعلّنا، كذلك، ومن خلال وعينا بوجود نسختين أساسيّتين عن العالم تُقدّمان لنا بواسطة نصفَي الدماغ، ننفذ، ببصيرة أرفع، إلى طبيعة الوضع الإنسانيّ. فلكلّ من النظرتين قيمته. ولكن، لوقوفهما في تعارض، ينبغي فصلهما. من هنا كانت البنية الدماغيّة المنقسمة إلى نصفين.

ويرى ماكغيلكريست أنّ الانتباه الذي نوليه العالَمَ، أو الاستعداد disposition النصف–دماغيّ الذي نوظّفه في ذلك، أو، بعبارة أخرى، "كيف" الانتباه إلى العالم، لا يُحدِّدُ، فحسب، من "نحن"، بمعنى من "نكون"، بل هو يساهم في خلق العالم الذي نسكنه: فنحن، حرفيًّا، شركاء في الخلق.

ومع تقادم الزمان، من ناحية أخرى، طرأ تغيّر على نحو الانتباه الذي يوليه الغربيّون للعالم، وبالتالي، فإنّ هذا الانتباه المتغيّر، والوعي بالذات المتصاعد، قد "خلق" عالمنا الذي تغيّر. وقد أدّى التغيّر في الانتباه [إلى العالم]، وهو فرعُ التدخّل المتزايد للنصف الأيسر من الدماغ[1]، إلى المزيد من المشاكل في التعاون مع النصف الأيمن. بل لقد انتهى بنا المطاف إلى خلل وظائفيّ.

ما يرمي إليه ماكغيلكريست، هنا، هو أنّ الدماغ الأيسر، الذي يولّد "عالمه الفعليّ" المرتكس إلى الذات، قد أغلق كلّ المنافذ المتوافرة، وكلّ الطرق الممكنة، للخروج من "قاعة المرايا"، التي تعكس نفس صورتها وتفاصيلها، إلى الواقع الذي يعيننا الدماغ الأيمن على فهمه، إن لم يُمنع، وبإصرار، من الإدلاء بدلوه. وقد نتج عن ذلك رؤية غربيّة مُمَكْنَنَة، مُبتسَرة، ومنزوعة السياقات، موسومة بتفاؤليّة لا أساس لها، ومختلطة مع رُهاب وشعور بالفراغ. ويرى الكاتب في ذلك انعكاسًا لممارسات دماغ أيسر مختلّ وظائفيًّا، ولا يجد على ممارساته اعتراضًا. بل في هذا التحليل ما يدلّ، كذلك، على إرجاع الوعي الغربيّ المعاصر كلّ القيم العليا إلى القيمة الوحيدة التي يفهمها، وهي المنفعة، وعلى عجزه عن القيام بخلاف ذلك.

إنّني مؤمن بأنّ استعادة الإمام الخميني لتقليد فكريّ تضرب جذوره، تحديدًا، في الأوّليّة (لا الهيمنة) المضمرة لنحو الانتباه الذي يوليه الدماغ الأيمن للعالم، تزوّدنا بإجابة على تساؤلات ماكغيلكريست حول إمكانيّة تدارك نتائج

[1] سأقوم، من الآن فصاعدًا، باستبدال عبارة النصف الأيسر، أو الأيمن، من الدماغ، بقولي الدماغ الأيسر والدماغ الأيمن، وذلك على سبيل التسامح، إذ ليس ثمّة إلّا دماغ واحد منقسم إلى نصفين، أيمن وأيسر. المترجم.

سيطرة الدماغ الأيسر، واستعادة التوازن بين النصفين. فالتوازن برأيي، في نحو الانتباه الذي نوليه للعالم، كان محوريًّا في مقاربات الإمام. ولعلّ ما تحمله لنا هذه الحكاية أو هذه "الأسطورة" –عن نصفَي الدماغ– هو النفاذ الثاقب إلى أنماط رؤية، وأنماط وجود، تمنح الأفضليّة لأحد النصفين على الآخر، وقد تمكّننا، بالتالي، من الحؤول دون الاستئثار بالخيارات التي لا يمكن ولوجها إلّا من خلال الدماغ الأيمن.

كما ويضيء المجاز الذي يستعين به ماكغيلكريست، برأيي، على كيفيّة انجذاب الوعي الإسلاميّ إلى قيم أخلاقيّة أسمى، تتجاوز قيود الزمان، ولا تعبأ بنظام الأسباب. فللشجاعة والتضحية بالذات قيمة في نفس الأمر، بغضّ النظر عن عواقب ممارستها. ولا بدّ لهاتين القيمتين، والقيم المماثلة، من مقاربة **لا** تنحصر بأداة المنفعة. أمّا من وجهة نظر الدماغ الأيسر، فإنّ هذه القيم تُستوعَب بردّها إلى القيمة الوحيدة التي يعرفها النصف الأيسر، المنفعة.

نصفا دماغ: نسختان عن العالم

لا ينفصل نصفا الدماغ عندنا كلّيّةً. ولدينا من الأدلّة ما يُشير إلى أنّ كلّ نشاط إنسانيّ يجد في كِلا النصفين مدخليّةً إليه. وقد كان دور النسيج الوسيط corpus callosum، وهو النسيج العصبيّ الذي يربط نصفا الدماغ، مجهولًا لفترة طويلة. الآن نعلم أنّ دوره هو تمكين النصفين من التواصل. ومن المقدَّر أنّه يحوي عددًا من الألياف ما بين الثلاثمائة والثمانمائة مليونًا تربط المواضع المشابهة طوبوغرافيًّا في النصفين. ومع هذا، فإنّ نسبة الخلايا العصبيّة التي يربط بينها النسيج لا تتخطّى نسبة الاثنين بالمئة من خلايا اللحاء[1] الدماغيّ brain cortex. وما يلفت انتباهنا هو أنّ الغاية الأساسيّة لهذا الكمّ الهائل من الارتباطات هي التثبيط. بكلام آخر، إنّ الوظيفة الأساس لهذه الألياف هي أن يمنع كلّ نصف النصفَ الآخر من التدخّل. وعندما كنّا نطوّر، مع الوقت، أدمغةً أكبر، لم تكن الروابط بين النصفين تزداد كما قد يتوقّع المرء، بل كانت تتناقص بالنسبة إلى حجم الدماغ.

فما هو، إذًا، هذا النحو المختلف، من الاشتغال النصف–دماغيّ، الذي يقدّم العالم بطريقة مختلفة؟ لاحظ الدماغ الأيمن. فنحن نختبر فيه عالمَ الوحدة والانفصال في شموله وتعقيده الحيّ، هو عالم في سيولة دائمة، في شبكة من التعالقات، شبكة من الكلّيّات التي لا تفتأ تتشكّل وتعاود التشكّل. هو عالم نختبر فيه الترابط في أعمق ما يكون. أمّا صنوه، الدماغ الأيسر، فنحن نختبر فيه خبرتنا بنحو خاصّ؛ بنسخة منها قد "أعيد تقديمها"[2]، فهي تحوي، الآن،

---

[1] أي القشرة الخارجيّة للدماغ المسؤولة عن وظائفه العليا، والبالغة التطوّر في الدماغ الإنسانيّ. المترجم.

[2] يقول الكاتب بأنّ الدماغ الأيمن يقوم بتقديم present العالم لنا، والكلمة قد تُترجم بإحضار العالم، أو جعل العالم حاضرًا. أمّا الدماغ الأيسر فيقوم بتمثيل العالم، تقديم صورة، أو مثال، عنه *re*-present، والترجمة الحرفيّة هي إعادة إحضار، أو إعادة تمثُّل، أو إعادة تقديم العالم، وهذه الأخيرة هي ما سنعتمده في الأغلب. المترجم.

كيانات ساكنة، متفاصلة، محدودة، وقابلة للتصنيف إلى فئات وأجناس. يقوم هذا النحو من الانتباه بعزل الأشياء، وتثبيتها، فيجعلها محدّدةً وصريحة. وهو بهذا يصيّر الأشياء مكتفيةً بذاتها، آليّة، لا حياة لها. بإيجاز، إنّنا تستحوذُ علينا طريقتان للتعاطي مع العالم، كلتاهما أساسيّة، بيد أنّهما متنافرتان، وبالتالي، يضطرّ الجسد إلى أن يتعاطى معهما كلّ واحدة على حيالها، إلى حدِّ الفصل في البنية العصبيّة المادّيّة بينهما.

وبالعموم، يتصدّى الدماغ الأيمن لمسؤوليّة كلّ نوع من الاهتمام ما عدا ما كان منه متركّزًا، فيأتي انتباهًا واسعًا يقظًا، في حين يُفيد الدماغ الأيسر الاهتمام الضيّق، والانتقائيّ، والمتركّز. فهاهنا قابليّتان، إحداهما تستخرج الأشياء من العالم لغاياتنا الخاصّة، مقتضيةً عزل الشيء عن قرينه، وعزل الكائن الحيّ، منظورًا إليه كذاتيّ، عن العالم، منظورًا إليه كموضوعيّ. والدافع هنا هو القبض على الأشياء التي ينبغي إيلاؤها الأولويّة واستخدامها، والقيمة الحاكمة هي المنفعة. أمّا القابليّة الثانية (التي يشتمل عليها الدماغ الأيمن) فهي تنزع إلى اليقظة وحدّة الانتباه، إلى حسّ الارتباط بالأشياء قبل أن يعزلها التفكّر، وبالتالي، فالتوجّه هو نحو الانخراط بالعالم، نحو علاقة من "البينيّة" مع كلّ ما يكمن خارج الذات.

المِلاكُ، إذًا، هو الانتباه. فكلّ ما هو موجود، ينوجد لنا من خلال التفاعل مع دماغنا وذهننا. فمعرفتنا بهذا الوجود إنّما هي تعبير عن أنفسنا، بنحو، وفرعُ ما نأتي به لهذه العلاقة، وكلّ ما خلا ذلك واهٍ.

قد يبدو من الواضح، عندها، أنّ مهمّة الدماغ —السببَ الذي لأجله نمتلك دماغًا— هي أن يضعنا في تماسّ مع كلّ ما هو موجود سوانا. أمّا ما هي الأوجه، ما هي النسخة من "ذاك الذي يوجد" والتي "تنوجد لنا"؟ فهذا ما سيتوقّف على طبيعة انتباهنا، أي نحو وجودنا، نحو نزوعنا إلى "ذاك الذي يوجد"، سوانا.

وبعض الغايات –تلك الغايات التي تستوجب الاستفادة ممّا في العالم، والتحكّم فيه لحاجاتنا– تُلزمنا الانتقائيّةَ في ما نراه، أن نصرّ على غربلة السياق، وبعض أوجه الخبرة، كي نصل إلى المنفعة والصراحة explicitness. وقد تصير هذه المعالجة تلقائيّة وآليّة بحيث لا نختبر العالم أصلًا، بل تنحصر خبرتنا به في إعادة تقديماته أو تمثُّلاته. بالتالي، لا يعود العالم حاضرًا عندنا، بل مُعاد–التقديم أو مُعاد–الإحضار، مجرّد صورة واقعيّة موجودة بشكلّ مفاهيميّ تصوّريّ في الذهن. هذا هو مضمار الدماغ الأيسر. وقدرتنا على استعمال العالم تعتمد بشكل كبير على استحضار هذه التصوّرات، إعادة–تمثُّلات العالم.

بيد أنّ إعادة التمثُّلات هذه، تختلف كثيرًا عن الفهم والمعرفة بمعناهما الواسع. وبهذا اللحاظ، تكون الأولويّة للدماغ الأيمن؛ فهو يضمن المعرفة التي يَؤول الدماغُ الأيسر إلى حيازتها، وهو وحده القادر على أن يصيغ معرفةَ كلا النصفين. فكلّ ما هو جديد يجب أن يحضر أوّلًا في الدماغ الأيمن، قبل أن يصل إلى بؤرة التركيز الأوضح، والأكثر

تجرّدًا، في الدماغ الأيسر. ويجب بعدها أن يعود من النصف الأيسر إلى الأيمن، كيما يُعاد دمج الفهم الآليّ، والمحدّد، والخالي من الحياة، مع الميل الجشتالتيّ[1]، الحيّ، والتوحيديّ للدماغ الأيمن. هذا إذا ما أردنا أن لا تنقطع تجريدات الدماغ الأيسر عن السياقات، وعن العالم الحيّ. ويحظى الدماغ الأيمن بالأسبقيّة تحديدًا لأنّه يتعاطى مع العالم قبل أن يحوّلَهُ الانفصالُ، والانقسامُ، والتحليل إلى شيء آخر؛ وقبل أن يقوم الدماغ الأيسر بإعادة تقديمه.

وهكذا، فإنّ أولويّة الدماغ الأيمن تتجذّر في أولويّة انتباهه اليقظ، وفي الأولويّة الذاتيّة للمضمَر على الصريح. فالمعنى المجازي، بكلّ الاعتبارات، سابق على التجريد والتحديد؛ فلا يستطيع المرء أن يجرّد (يجرّد في الأصل اللاتينيّ تعني أن يأخذ أو يسحب من) إن لم يكن ثمّة ما يجرّد منه. ولا يستطيع المرء أن يجعل الأشياء صريحةً (explicit هي في اللاتينيّة نشرُ ما كان مطويًّا)، إن لم تكن في الأصل مضمَرةً (مطويّةً). فجذور المصرَّح تكمن في المضمر، والمضمر هو حقل الدماغ الأيمن. أمّا القبض على الأشياء (وهذا هو أسلوب الدماغ الأيسر)، فلن يوصلنا بعيدًا، بالتحديد لأنّ أكثر الأشياء أهمّيّة تعصى على القبض، لطبيعتها غير المباشرة أو المضمَرة. وأن نخضعها لمقتضيات الصراحة هو أن نحرِفَ طبيعتها كلّيًّا.

إنّنا لا نحكي هنا عن أنحاء تفكير مختلفة، بل عن استعدادات مختلفة لتلقّي العالم. والاستعداد الذي نتلقّى به العالم يغيّر نوع الشيء الذي ينوجد لنا، كما ويقوم انتباهنا بتغيير من نكون، نحن الذين نولي الانتباه. ويعلّمنا علم النفس العصبيّ أنّنا عندما نولي عنايتنا شخصًّا ما، أو أمرًا ما، حتّى من خلال التفكير بأنماط معيّنة من الناس، أو "القيم"، أو تخيّلها، فنحن نصير أقرب شبهًا بذاك الشيء أو الشخص في كيفيّة تصرّفنا وتفكيرنا وشعورنا. وهذا هو أساس أهمّيّة اختيار النموذج الأعلى، وتهذيبِ الانتباه. كلّ هذا، بالطبع، مُتضمَّن في الإسلام، إلّا أنّ الإمام أتى فأكّد عليه مجدّدًا.

ومن خلال وجهة استعدادنا وطبيعته، وكذلك الحال مع الانتباه المسبق؛ أي القالب الذهنيّ الذي من خلاله نشاهد العالم، فإنّنا، فعليًّا، نخلق العالم الذي يقدّمه ذهننا لنا ونعطيه شكلًا. أن"ننسلخ، بالطريقة الديكارتيّة، هو نوع خاصّ من الانتباه له تداعيات جمّة فيما نجد. ويجيب الغرب عن هذا السؤال، سؤال أيّ نوع من الاستعداد نتلقّى به العالم، من خلال فهم العالم بالطريقة الوحيدة التي يعرفها –طريقة الآلة– والتي تعكس، إلى حدّ بعيد، عمل الدماغ الأيسر الذي ينسجم مع نموذجها (نموذج الآلة) انسجامًا حميميًّا. يجب، إذًا، أن لا نستغرب إذا ما رأى التفكير الغربيّ إلى الجسد، والدماغ، والعالم، على أنّها آلات.

[1] الجشتالت *Gestalt* مفردة في علم النفس تعنى البنية، أو الهيئة، التي تشكّل كلًّا موحّدًا، يساوي أكثر من مجرّد مجموع أفراده. وهي تشير إلى أهمّيّة السياق في رؤية الكيانات. المترجم.

نحن، ببساطة، لا نستطيع أن نرى شيئًا عاريًا عن العمق، لا مرساة له في العالم المعيش، معزولًا عن السياق، حتّى اللا-سياق الديكارتيّ هو سياق مشبع بالقيمة في ذاته؛ وهو حتمًا سياق قادر على تحديد ما سنجده في هذا العالم أيضًا. لا مفرّ، بالتالي، من القول بالدور في بنية الدماغ الأيسر: "إذا توقّعت أن يكون العالم ميتًا، مادّة صمّاء، وافترضت سياقًا 'لا-سياقيًّا'، واتّخذت الآلة كقالب سابق على الانتباه، فستجد أنّ ما 'تراه'، الدليل الذي 'سيخرج إلى الوجود'، لن يقوم إلّا بتثبيت الرؤية إلى العالم على أنّه آلة ميكانيكيّة".

وماكغيلكريست، هنا، في تعبيره بالعالم المعاد-تمثيله، عوضًا عن العالم المقدَّم [أو المحضَر]، وفي إشارته إلى ماكينة "واقعيّة" مصنَّعة، يعيدنا إلى المفكّرين الماقبل سقراطيّين الذين حذّروا من أنّ هذا النحو من التفكير، هو ببساطة عالم مرآتيّ. إنّه يزوّدنا بلمحة عن أنفسنا، عن من نكون، عن نحو وجودنا، لا عن ذاك الموجود سوانا. وإن كنّا مهيّئين تمامًا لأن لا نرى إلّا ما نريد رؤيته، فلن ينعكس إلينا، في مرآة الرأي الإنسانيّ، سواه.

سوف نعيش مضلَّلين، أُسارى وهم قد يبدو أصيلًا وحقيقيًّا بالنسبة إلينا، بيد أنّه يظلّ ضلالًا. أمّا إن كنّا مستعدّين لأن ننظر إلى أنفسنا بطريقة تغاير ما اعتدنا عليه، باقتراح الماقبل سقراطيّين، فحريّ بنا أن نبدأ بملاحظة ما لطالما كان هناك، منتظرًا أن يُرى. من هنا، فقد كان أمبذوقلس وبارمنيدس يجادلان على الدوام بأنّ كلّ الإنسانيّة تعيش في وهم مماثل، وهمِ "الرأي" الإنسانيّ المقولب في مفاهيم، المبنيّ من أجزاء متشظّية، والمتأطّر بحسب القالب الماقبل-انتباهيّ بحيث قد صاغوا توقّعاتهم لما "يكونه" العالم في نماذج منتهية.

إلّا أنّنا لسنا بناظرين إلى أشياء منسلخة عن السياق فحسب، بل إلى عمليّات نبدأ معها، ووفقًا لها، بـ"ملاحظة" ذاك الذي لطالما كان هناك، "متلهّفًا لأن يُرى"، بـ"رؤية" شيء في طور "الانوجاد". وهذا ليس شيئًا، بل هو نزوع وسَفَر له درجاته ومراحله. ونحن إنّما نجده بإزالة الأشياء، لا بجمع الأشياء إلى بعضها. إنّها فكرة الحقيقة بما هيكشف، في مقابل فكرة الحقيقة بما هي صوابيّة، إذ هذه الأخيرة سكونيّة، هامدة، فالحقيقة ككشف هي تَقدُّم نحو أمر ما، مع كون هذا الأمر في مرأًى منّا، وإن لم يكن مُشاهدًا بالكامل. أمّا الحقيقة كصوابيّة فتصير شيئًا بنفسها، شيئًا يكون لنا أن نعرفه تمامًا. وما يرمي إليه القدماء، باختصار، هو أنّ العالم مقلوب، وما يتراءى لنا على أنّه الأكثر صلابةً، والأكثر جوهريّة، والأكثر تسديدًا بالدليل ينكشف كوهم وخداع؛ أمّا ذاك الذي ينسحب من بؤرة الانتباه، والذي يُرى جزئيًّا فحسب -وفي بعض درجاته إن كان له أن يُرى- فهو، دائمًا، "أقرب بخطوة" إلى الحقيقة، وهذا أقصى الممكن.

ما هو الانتباه الملائم، إذًا؟ ما هو الاستعداد الملائم كي نبدأ بالرؤية بشكل مختلف؟ في الإجابة عن هذا السؤال، لا نجد مفرًّا من اللجوء إلى القيم. فالقيم تحضر من خلال النحو الذي نمارس به انتباهنا، في تهذيب نوع

الانتباه الذي نتبنّاه. والانتباه غرضه الـ"كيف" في الأشياء، هو أمر بينيّ، وجه من أوجه الوعي، وليس غرضه الـ"ماذا" فيها، فجواب الماذا في الأشياء، هو بنفسه شيء من الأشياء. والاتّجاه الذي يتحوّل إليه انتباهنا، سواء كان التطلُّع المنفعل إلى اليقين المُقعَّد، أو الانتباه القادر على العيش في اللايقينيّات والأحجيات وعالم اللاشيء، فلعلّه الخيار الأكثر محوريّة الذي يواجهه الإنسان: فاختيارُ نحوِ الانتباه يأتي بعالم إلى الوجود، ومعه، وبحسب طبيعته، مجموعة من القيم. الملفت، هنا، هو مدى عكس بنية الدماغ المنقسمة لطبيعة الوجود المقلوبة هذه.

ولأكون واضحًا، لن تكون "العقلانيّة" مصدرًا نستقي منه القيم. إذ التقابل هنا هو بين الانجذاب، من جهة، إلى أنا معزولة، صريحة العلاقة مع الاستغلال المفترس للعالم، والمغترِب عنه (النزوع الدماغ–أيسريّ)، وبين، من جهة ثانية، إلفة للدماغ الأيمن مع الحيّ، إلفة الذات المنجذبة إلى العالم في علاقة لا انفصام لها؛ علاقة "الكون مع"، علاقة الوحدة، وعلاقة الرعاية. إنّه اكتناف الكائن المختبِر بكلّه. هو الشعور بالبدن لا كشيء نعيش بداخله، ولا حتّى كامتداد لذواتنا، بل كوجه من أوجه وجودنا الصميمة. فليس هو غريبًا عن الأشياء المادّيّة، بل، على العكس تمامًا، يعتني بالأشياء المتشخِّصة في كلّ خصوصيّتها ووجودها المتراصّ والمتعيّن؛ وإذ يجذب بعضُ "الوجود" بعضَ "الوجود" الآخر أقرب، فإنّ بعض الوجود، أو "الشيء"، يعاين الانجذاب.

نحن نتعاطى هنا مع ضبابيّات الرؤية، مع نظر استعداديّ متوجّه إلى الموضعة والاغتراب، وآخر يصير أساس التواصل، يصير معرفة ترداديّة فنصيرَ بين الكائنات. وإن كانت قوانا الحسّيّة غير شفّافة، إن أعطينا الأولويّة للمرئيّ فحسب، على الطريقة الديكارتيّة، فإنّ رؤيتنا تصير عائقًا، أمرًا يُبعد الرائي عن المرئيّ.

وهذا ما يقتضي عدم امتلاك المراقب لأيّ تأثير على المراقَب (أو عدم تأثّره بما يراقبه). إلّا أنّ البينيّة في هذه الرؤية ليست غائبة، بل مُنكَرة، وبالتالي هي باردة، خالية من الحميميّة. أمّا إذا رأينا إليها بنحو مختلف، إذا استعنّا بالرؤية الخلاليّة[1]، واستخدمنا كلّ القوى، عوض الاعتماد الكلّيّ على ثبات "النظر" المنفصل ووضوحه، فعندها نعي وجود الآخر ووجود أنفسنا ككائنات متّصلة. فتصير [البينيّة] وسيلة تواصل بين الاثنين، وتحويل لكليهما.

على الانتباه، إذًا، أن يمرّ عبر أفق التركيز (التبؤّر). فرؤية الشيء كما هو تقتضي الرؤية من خلال الأفق المباشر، إلى الأمر المتخطّي، إلى دائريّة، أو عمق، ذاك الذي يوجد. فالصراحة تفرض الانسلاخ والتركيز على التفاصيل، عوض التركيز على المغزى.

[1] أو "الرؤية من خلال"، أي الرؤية التي تنفذ من الأشياء إلى ما ورائها seeing through. المترجم.

مجدّدًا نرجع إلى خيوط التفكير التي وجدت قبل أفلاطون وأرسطو، إلى تتامٍّ أنواع التفكير القديمة، التي لاءم السهروردي بين متفرّقاتها، والتي قد نفذ فيها الإسلام. ففي شذرات المصنّفات القديمة هذه، أثر من الجوّانيّة الدفينة، وغالبًا ما تهب نفسَها للمفارقات وللنفي المثبِت عوض الوضوح والشفافيّة. ولطالما قرّعها أرسطو لما عدّه عيبًا فيها.

مع هذا، وبتقابل صارخ مع الرائج الفكريّ في عصرنا، فإنّ القدماء ربطوا بين صعوبة النصوص والقصائد القديمة، وبين صعوبات الإدراك البشريّ بما هو هو. فالاستحضار الحقّ للأشياء هو بحيث تكون كلّ محاولة لسكبها (الأشياء) في قوالب اللغة تدعو إلى المفارقة. أمّا كلّ محاولة لفض المفارَقة فإنّها تحرِّف وتشوّه. لذا، لم يعبّر القدماء عن ندمهم لملاحقة هذا المنطق التدرُّجيّ المختلف عن منطق أرسطو.

إنّه بالاقتراب من الفرديّة المتعيّنة الصلبة ومواجهتها، بالتبادليّة والبينيّة، حيث نلمح الكلّيّ –بعبارة أفلوطين– كما لو كان منعكسًا في صُوَر نراها على صفحة غير صقيلة لمرآة معتمة. وترتبط طريقة الرؤية المختلفة هذه بالبدن وبالحواسّ في تباين حادّ مع الثنائيّة الغربيّة بين البدن والذهن. فنحن لا نسكنُ الجسدَ كما لو كان قطعة غريبة من ماكينة ديكارتيّة ما، بل نحن نعيشه. وينبغي أن تعمل أجسامنا وأذهاننا كما لو كانت ملكةً واحدة إن كان لنا أن نكون واعين بأنفسنا بما نحن كائنات مندمجة مع هذا العالم، متفاعلة مع عالم الكائنات الحيّة. وهذا نحو من التقابل يُبرز، مرّة ثانية، بعض الاختلافات الجوهريّة بين العالمين الذين يولّدهما كلّ من الدماغ الأيمن والأيسر.

كلّ شيء هو ما هو، وليس شيئًا آخرًا. إنّه تعبير عن ولع الدماغ الأيمن بالماهيّات؛ ماهيّات الأشياء المتعيّنة في محوضتها. ويقترحه ماكغيلكريست كسبيل لمقاربة الكلّ بما هو كلّ. والقيمة الأخلاقيّة، هنا، هي شكل من الخبرة، وهذه الـ"هي" غير قابلة للاختزال إلى أيّ خبرة أخرى، أو شيء آخر. أمّا بعض القيم، من قبيل العدالة والشجاعة والتكافل، فتبدو سابقةً، حتّى، على أوجه عالم الوجود الإدراكيّة، وعلى الخبرة كذلك. بيد أنّ هذه القيم أوثق ارتباطًا بقوّة التشاعر منها بقوّة التعقّل. وهذا ما تعكسه، أيضًا، بنية الدماغ، فشعورنا بالعدالة يكون ممكنًا بفعل الدماغ الأيمن، تحديدًا لحاء مقدّم الجبهة الظهرانيّ الجانبيّ الأيمن. فعندما تتعطّل هذه المنطقة، يصير تصرّفنا أنانيًّا.

بالمحصّلة، يرى الدماغ الأيمن إلى القيم الدنيا على أنّها مستقاة من قيم أعلى، وهي خادمة لها، في حين أنّ الدماغ الأيسر اختزاليّ، ويفسّر القيم العليا بإحالتها على القيم الدنيا، مع كون القيم الحاكمة عليه هي قيم المنفعة واللذّة. وهكذا تُمسَخ عواطفنا، وحسّنا الفكاهيّ، وكلّ فهمنا المجازيّ الرمزيّ، وكلّ عمليّاتنا الخياليّة والحدسيّة، بأن تصير غرضًا للانتباه المركَّز، الذي يجعلها صريحةً، وبالتالي، ميكانيكيّة وخالية من الحياة.

يرى ماكغيلكريست أنّ الدماغ الأيسر كان يزداد ميلًا إلى أن يرى بنية الدماغ الأيمن متعارضة معه، مخاصمةً له، وتهديدًا لهيمنته، وبالتالي فقد عمد إلى اعتراضها، معطّلًا بذلك عمليّة إعادة معطياته إلى الدماغ الأيمن، كيما يُعاد

انفصال الدماغ الأيمن وانعزاله إلى السياق الملائم، كيما يرجع كُلًّا [يكفّ عن التشظّي] مجدّدًا وهذا مثال عن الخادم الذي توهّم سيّده طاغية، ظانًّا أنّه [الخادم] يعرف أكثر.

إنّ هذه الإطاحة بأولويّة الدماغ الأيمن هي نتيجة حتميّة لنزوع الدماغ الأيسر إلى تقديم رؤية ميانيكيّة للعالم، يصير، بحسبها، الميل التوحيديّ للدماغ الأيمن تهديدًا بإطاحة كلّ إنجازات الدماغ الأيسر في تعيين حدود الماهيّات المفردة.

ففي الدماغ الأيسر، يعاد تقديم الأشياء؛ إذ هو ليس مهتمًّا بتقديمها كما هي، بكلّ غموضها والتباسها؛ إذ الحاكم هنا هو القيمة الاستعماليّة للأشياء. وفي العالم الذي يوجده الدماغ الأيسر ، إمّا أن يرتدّ كلّ شيء إلى المنفعة، أو يُلفظ بحدّة. وقد كان هايدغر هو الذي لاحظ أن أداتيّة الفكر الغربيّ تعكس، بذاتها، نسيان الوجود في الغرب، وهذه مسألة أثارها الملّا صدرا قبله بقرون، وقد يضيف ماكغيلكريست بأنّها الباعث على التطفّل المتزايد للدماغ الأيسر في أشغال الدماغ الأيمن.

فبتعاطيه مع الوجود على أنّه خاصّيّة أخرى من خصائص الشيء، أو عَرَض آخر له، فإنّ التفكير الغربيّ الإجرائيّ يحجب الدهشة الجذريّة التي قد نشعر بها إذا ما تمكنّا من فهم "الوجود" بشكل أوسع. أمّا تعتيمنا على الوجود بما هو صفة (ولا يوجد في اللغة الإنكليزيّة استعمال للمفردة يستغني عن صيغة الفعل المقرون إلى صفة) فيخلّ بمحاولاتنا بأن نشعر بـ"مهابة الوجود". إنّنا نخسر الإحساس بالدهشة. وإذ تُسطَّح الأشياء وتُزيَّف، فهي تُمفهَم عوض أن تُختَبَر.

والوجود، في جوهره، كتوم، متحفّظ، هكذا ينبئنا قدماء الشرق، وهراقليطس، والماقبل سقراطيّين، والأفلاطونيّون الجدد، وكذلك الملّا صدرا وهايدغر. هو يعتزل الانتباه المركَّز، الممعن تحديقًا، الذي يسعى إلى اقتطاعه عن شبكة العلاقات البينيّة، عن عمق المعنى، عن كمونه، كيما يعزل صفاته، ويميّزها، ويموضعها [يجعلها موضوعًا]. والوجود، أمام محاولة فهمه بهذا النحو، فإنّه ينسحب وينكفئ.

فالأشياء كما "تكون" حقًّا، لا تنكشف إلّا من خلال استعداد معيّن لانتباه صبور متوجّه إلى العالم. وهذا ما يربط الحقيقة بمفهوم الانكشاف *aletheia* اليونانيّ، الشيء الذي يسبق الوجود، الكائن بالذات، العصيّ على التعريف بشكل لائق إلّا بالسلب، بأنّ نقول ما ليس فيه (apophasis).

وإذا ما كان توصيفنا لأداتيّة الدماغ الأيسر و"موقفنا" من الدماغ الأيمن، يصدم القارئ على أنّه لمسة متعمّدة، فله الحقّ في ذلك. فوضوح ماكغيلكريست في تنافسيّة الدماغ الأيسر لا تشوبه شائبة، إذ همُّهُ الأساس، ومحرّكه الأوّليّ، هو القوّة. ولن نجافي الإنصاف إن قلنا إنّ العالم، إذا كان للدماغ الأيسر أن يحرز الأسبقيّة، سيكون ميكانيكيًّا إلى

حدّ بعيد، مجرّد تجمّع لـ"أجزاء" متفاصلة، سيكون مجرّدًا، وبلا بدن، نائيًا، شيئًا ما، عن المشاركة في الشعور، صريحًا، نفعيًّا في أخلاقه، زائدَ الثقة في قبضه على الواقع، وفاقدًا للتبصُّر في المشاكل، والدليل الآتي من العلوم النفسيّة العصبيّة يؤكّد على أنّ هذه هي كلّ أبعاد عالم الدماغ الأيسر في مقابل عالم الدماغ الأيمن.

فماكغيلكريست يكتب بأنّ الحالات التي يتضرّر إثرها الدماغ الأيمن، أو يتزايد فيها تدخّل الدماغ الأيسر، عادةً ما تشهد مشاكل عياديّة مشابهة لتلك التي نراها في حالات الانفصام، يعاني المرضى من صعوبة في فهم السياق، والنبرة، وفي تأويل تعبيرات الوجه، وفي تأويل المشاعر والتعبير عنها، وفي فهم وجهات نظر الآخرين المختلفة. كما ويعانون من مشاكل مشابهة في إدراك الجشتالت، وفي فهم الوحدات الكاملة.

وقد كتب عالم النفس المرموق لويس ساس Louis Sass حول الحداثة الغربيّة، وفلسفتها، ومتوازياتها مع الانفصام. أمّا أهمّيّة كتاباته فتكمن في إظهارها، مجدّدًا، لكيفيّة تحويل الانتباه لما يضع يده عليه، وتحديدًا، عندما نكفّ عن انخراطنا في العالم، ونكفّ عن الاستجابة التلقائيّة والحدسيّة له. بل نصير، في المقابل، منفكّين، منفعلين، واعين بذواتنا، و"محدّقين" إلى العالم بأعين "موضوعيّة"، ويصير العالم غريبًا، أجنبيًّا، مخيفًا، ومشابهًا للعالم الذهنيّ في حالة الانفصام.

يتقصّى ساس الفكرة القائلة بأنّ الجنون هو آخر نقطة في المسار [الذي] يتّخذه الوعي عندما ينفصل عن الجسد وعن الشغف، وعن العالم الاجتماعيّ والعمليّ، ليرتكس [الوعي] إلى ذاته. والوعي الزائد بالذات يغرّبنا عن العالم، ويوهمنا بأنّنا، نحن فقط، وأفكارنا، واقعيّون. كم هو قريب هذا الموقف من موقف ديكارت. فالمراقب المنسلخ، الهامد، المتبلّد، يشعر وكأنّ العالم يفقد واقعيّته، ليصير مجرّد أشياء نراها. وعندما يستحوذ علينا هذا الانتباه المحدّق، نرى الناس الآخرين كما لو لم يكونوا أناسًا، يصيرون رجالًا آليّين، يصيرون آلات.

ولخاصيّة بناء الأنساق العقلانيّة فيه، فإنّ الدماغ الأيسر يجعل إرادة الفعل ممكنة، فيؤمن بأنّه هو المعطي الأشياءَ حصولَها. وبذا يتعزّز وهم القدرة على الفعل في كلّ مرّة ينوجد فيها شيء جديد من خلال الإتيان بعناصره المتوزِّعة وتجميعها. وهاهنا تسلسل لقطع صغيرة من المعلومات، نهائيّة الشكل في الظاهر، تجتمع لتصنع شيئًا. وهكذا، فإنّ تسلسل الأشياء التي تسبّب إحداها الأخرى في الزمان هو من مخلّفات الدماغ الأيسر، وطريقتِهِ في رؤية العالم. أمّا في الطريقة الأخرى للنظر إلى العالم، فإنّنا لا نجمع مستعينين بقطع متفرّقة ومنفصلة، نحن لا نصنع "أشياء" جديدة، ولا نجعل الأشياء تحصل، بل نحن نكشف عمّا هو موجود أصلًا.

يلاحظ هايدغر، متهكّمًا، بأنّ ما يُطالَب به الآن، في كلّ مكان، هو الفعل القاسي، الفوريّ، وحيث تقتضي الضرورة، العنفيّ، لقد صار المريض الصبور الذي ينتظر هديّته أشبه بالضعف المحض.

لكنّ فعلَ "خلقِ" الأشياء لم يكتس هذا المعنى، في الغرب، قبل القرن السابع عشر. وبمعناها القديم، فإنّ كلمة يخترع (invent تعني، حرفيًّا، أن يجد) كانت تعني الاكتشاف، إيجاد أمر كان هناك، وإن كان يحتاج أن يُحرَّر إلى الوجود. فقط مع صعود التفكير الديكارتيّ باتت الكلمة تعني الفعل الذي نقوم به، أمرًا نجمعه ونصنعه، عوض أن نكشف عنه.

مرادنا ممّا ذُكر أن نقول إنّ القدماء أورثوا الغرب مفهومًا مفاده أنّ كلّ ما هو موجود سوانا يكون ما يكونه بمقدار ما تنوجد يكونه في وعينا البشريّ، في لقائها مع ذاتنا الجوهريّة. وبنحو مشابه، نحن ننوجد من ذاك الذي يوجد، ومن لقائه مع ذاتنا الجوهريّة. ورغم التفريط بهذا المفهوم في التقليد الغربيّ، فقد حافظ عليه التقليد الفكريّ الإسلاميّ وصانه.

هذا، ويُبلغنا المرضى الذين خضعوا لجراحة، فُصل بموجبها نصفا الدماغ جراحيًّا، عن خبرات مقلقة فيما خصّ تصلّب الدماغ الأيسر، وإن لم يعانوا، بالعموم، من خلل في إحساسهم بالذات. هكذا هي حال رجل أراد احتضان زوجته بيد، فوجد ذراعه الأخرى تدفعها. وفي الحالات الأخرى، يحكي بعض المرضى عن حادثة تتكرّر معهم أثناء قيادة السيّارة، بحيث تستحوذ اليد اليسرى على المقبض مُقصيةً اليمنى، وقد كانت الحالة من السوء بحيث اضطرّت إلى اعتزال القيادة كلّيًّا. وقد تحدّثت إحدى المريضات عن حالات تغلق فيها اليد اليسرى أبوابًا فتحتها اليد اليمنى، أو استردّت مالًا قدّمته اليد اليمنى إلى البائع، أو منعت القراءة بقلبها للصفحات وإغلاقها للكتب. أو، بعبارتها: "أنا أفتح الخزانة. أنا أعرف ما أريد ارتداءه، وإذ أحاول أن أحضره بيدي اليمنى، تقوم اليسرى بإحضار غيره. ولا أستطيع أن أتركه إن كان بيدي اليسرى، بل عليّ طلب مساعدة ابنتي".

ما يجري هنا، يشرح ماكغيلكريست، هو إقدام الدماغ الأيسر، غير عالم بما يجري في نظيره الأيمن، على تقرير ما أريده "أنا"، وعلى الحكم بأنّ أيّ اعتراض يُقدم عليه الدماغ الأيمن يأتي بخلاف "مصالحي"، وبالتالي، يحاول أن يأخذ بزمام الأمور، متجاهلًا تدخّلات الدماغ الأيمن.

ويكتب روجر سبيري Roger Sperry، الحائز على جائزة نوبل لعمله على المرضى الذي خضعوا لجراحة فُصل بموجبها الدماغ، أي تمّ قطع النسيج الواصل بينهما: "قد يكون كلّ من الدماغين واعيًا، في الوقت عينه، ولكن بنحوين من الخبرة الذهنيّة، متعارضين، ومتنافيين، وإن كانا متوازيين". إنّ فكرةً مماثلةً تثير، ولا ريب، أسئلةً حول "الذات" كانت مورد نقاش مستفيض إثرها. ويبدو لماكغيلكريست أنّ لبّ الذات يكمن في حميميّة العمق، تقع جذوره في مستوًى ما دون الانقسام الدماغيّ، أي هو سابق على هذه القسمة التخصّصيّة للدماغ إلى نصفين. ومع هذا، فإنّ كلا الدماغين، الواعيين إدراكيًّا، لا ينقطعان عن الاتّصال به.

عليه، يغذّي كلّ من الدماغين الوعيَ منفصلًا، وإن كان نحوُ الوعي في كلا الحالين مختلفًا. أمّا الاختلاف الأبرز فيكمن في علاقة كلّ من الدماغين بالذهن اللاواعي. هنا يعلّق بعض الكتّاب بأنّ الدماغ الأيسر معنيّ بالاستجابة الواعية، في حين يتعاطى الأيمن مع الذهن اللاواعي. ويَحضُرُنا، في المقام، الافتراض الرائج بأنّ "الإرادة" أقرب الأشياء إلى الذهن الواعي. فنتخيّل أنّنا، كي نقرّر أمرًا، علينا أن نريده، مستعملين لذلك المحلّ الواعي من دماغنا. لكن لعلّ "اللاواعي" هو، في كلّ ما فيه، "أنا"، تمامًا كما هي الـ"أنا" الواعية.

في واقع الأمر، من الأفضل أن يكون الحال كذلك، لأنّ محلّ الوعي من الحياة ضئيل للغاية. وعلى هذا، يحرّرنا جوليان جايمس[1] Julian Jaynes من فكرة الحاجة إلى الوعي في كلّ الملامح المحدِّدة للحياة الذهنيّة البشريّة. ويشير، لهذه الغاية، إلى أنّ القليل فقط من النشاط الدماغيّ يدخل حيّز الوعي (التقديرات الراهنة تشير إلى ما لا يتجاوز الخمسة بالمئة، وربّما لا يتخطّى الواحد بالمئة)، وأنّنا نتّخذ قراراتنا، ونحلّ مشاكلنا، ونصدر أحكامنا، ونميّز ونفكّر وما إلى ذلك دون أن يكون للوعي دور فاعل في أغلب الأحيان.

وهذا ما يوصلنا إلى إخفاق الرأي الرائج باحتكار الدماغ الأيسر للعقل الواعي. قد يرى أغلب الناس أنّ الاستدلال المباشر، والمتسلسل، والحياديّ، والصريح هو علامة "العقلانيّة"، بيد أنّ هذه المعالجة الميكانيكيّة لا تشكّل عقلًا. أمّا التعقّل الضمنيّ، ومعالجة المشاكل، والاستنباط، والتبصّر فترتبط جميعها بنشاط الدماغ الأيمن، في الموضع الذي يتوسّط بين المشاعر والوظائف الإدراكيّة الأرفع. وبطبيعة الحال، لا تنفصل المشاعر والأحاسيس عن الجسد الذي يشعر ويحسّ. فهو أساس انخراطنا في العالم. لذا، فإنّ الفهم الاجتماعيّ بمعنى الترابط المشاعريّ، وكذلك فهم كيف يشعر الآخرون، والقيم من قبيل العدالة، كلّ ذلك يكون ممكنًا بفعل الدماغ الأيمن.

ومجدّدًا، نرى أنّ نوع "المعرفة" الذي يصير موجودًا لا يرتبط بالسؤال عن الـ"ماذا" أو الـ"ما هو"، بل بالسؤال عن الـ"كيف". فأحد نوعَي المعرفة منسلخ [عن العالم]، أفقيّ، وتسلسليّ، لا يسعى ليرى الأشياء كما هي، أو أنّ يعيش "دهشة الوجود"، بل يؤثِرُ العالمَ البارد، المنتظِمَ، والمنزوع الأسطرة، وذلك كي يستطيع أن "يعيد–تقديم" العالم كموضوع للمعرفة. وهذه هي المعرفة الواقعيّة صنيعة ذاتنا، تجميع لأجزاء.

أمّا النوع الآخر من "المعرفة" فيميل إلى استيعاب كلّ الانعكاسات المختلفة لذاك الذي يقاربه، كلّ ذلك في وقت واحد. وهنا تجتمع الخبرة التلقائيّة الجشتالتيّة مع الصورة، ومع المضمَر، في وجود معيش، وحيّ، ومترابط. إنّها لحظة الدهشة حيث نجد الكلَّ المجتمعَ حرًّا، وحيًّا، أمامنا.

---

[1] في كتابه: *The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind* (Houghton Mifflin, 1990).

على هذا الأساس، تنبثق هذه العمليّة الجشتالتيّة "الأخرى"، وهي تُسمّى في الغرب "تصوّفًا" في إزاء "العقلانيّة" التجريبيّة التي تسعى إلى نزع الصوفيّة. وهي تنبثق، ببساطة، كتعقّل، تعقّل يُساء فهمه في الفكر الغربيّ لأوّلويّة العقلانيّة عنده. ومن الظاهر أنّ معظم النشاط الذهنيّ البشريّ (95 إلى 99 بالمئة) يقع تحت عنوان هذا التعقّل الجشتالتيّ المسمّى، خطأً، تصوّفًا. باختصار، كلّنا نمارسه.

وتصدر هذه النزعة الصوفيّة، بحسب الدليل العصبيّ–النفسيّ، عن ما يبدو أنّه أسلوب تفكير يخالف الطبيعة المضلِّلة لـ"إعادة التقديم"، لنحو تراءي "الأشياء" الخادع، فيقوم بتنحية "قبضة" الفكر المعقلِن. وفي المقابل يتّخذ نمطًا من الوعي يفتح المجال لاستبصاراتِ حالات الذهن غير الواعية بذاتها، فهي الذهن وقد صار يعرف نفسه بعمق، دون أن يعرفها.

وكثيرًا ما راجت مفاهيم من قبيل المعرفة العميقة، والتفكير العميق والتأمّل العميق في الحقبة القديمة. إذ، في هذه التعبيرات، تشير رمزيّة العمق إلى لاتناهي العقليّ والروحيّ. لكن لا شكّ بأهمّيّة كلا العقلين، ولعلّ نفس بنية دماغنا، لكونها على ما هي عليه، مؤشّر على أمر مهمّ في طبيعة الواقع، إذا ما استطعنا أن نفتح أنفسنا لنتأمّله.

ومجدّدًا، فقد جمعت خيوط التفكير الماقبل سقراطيّة، والقادمة من الشرق، استبصارات انبثقت من أنماط الوعي التي لا تتأمّل الذات بعقليّة السياسة العمليّة. خذ، على سبيل المثال، أرخيتاس الفيثاغوريّ، فقد كان مشرّعًا، ومهندسًا، ومخترعًا، بالإضافة إلى كونه قائدًا روحيًّا، وعسكريًّا، وسياسيًّا لمدينة تارانتو الإيطاليّة. وقد تطلّع إليه شعبه لحدوسه الأوّليّة، وتلازمها على الدوام مع التطبيقات العقلانيّة، في المسائل العمليّة كالهندسة والقانون، كما في الاستنارات الروحيّة.

وهذه المسألة مضمرة في إشارة الإمام الخمينيّ إلى أهمّيّة الحفاظ على دراسة العرفان في خطابه الأخير إلى الشعب الإيرانيّ. وتمثّل هذه المزاوجة بين الحدس النادر والبراغماتيّة في حلّ المشاكل، التي زاولها الإمام الخمينيّ، أوّل مثال، في خمسمائة عام، على هذا النحو من القيادة، وعلى هذا المستوى، أو هذا النمط من الوعي.

ولكن، بعد ما رأيناه، إن كان الدماغ الأيمن أكثر التصاقًا بالوضع الإنسانيّ من الأيسر، إن كانت رؤيته للعالم هي بهذه المحوريّة، وبالفعل لها أساسيّتها في ما خصّ العقل والمعرفة، فلماذا صار مهمَلًا إلى هذا الحدّ؟ هل المسألة، ببساطة، هي انحباسنا داخل المفاصل الميكانيّكيّة لاشتغال الدماغ الأيسر، والذي ساهمت قرون ثلاثة من طغيان الفكر الغربيّ في تعزيز رؤيته، حتّى عند المسلمين؟

أم هل هي مشكلة الوعاء الهشّ لنحوِ تفكير الدماغ الأيمن، والتي تميل أبدًا إلى الانحسار، وإخفاء الشفافيّة، أو تفضّل الاختباء أمام الوضوح، والثبات، واليقين التي تطالب بها حقبتنا المعاصرة؟ هل ثمّة من قوى مِتافيزيقيّة متصارعة

–حلقات التاريخ المتكرّرة– تحرّك أنماط وجودنا في العالم كما يقدّمه نصفا دماغنا؟ وهل نحن، بالفعل، أمام لحظة انطفاء دورة حكم الدماغ الأيسر، بما بات يُفسح في المجال لتقدّم نظيره؟ وهل يسلّط حدث الثورة في إيران، في استعادته للتقليد الفكريّ "الآخر"، أيّ ضوء على هذا؟

يقول ماكغيلكريست بتصاعد حادّ للوعي الذاتيّ البشريّ، مع مرور الزمن، ما أدّى إلى تزايد الصعوبات التي تواجه التعاون بين نصفي الدماغ. بذا يصير السؤال، لم كانت العمليّة بهذا القطعيّة في الغرب؟ لقد كانت هناك تحوّلات هائلة في حضارات الألفيّتين الأخيرتين، وكانت تتقاطع أحيانًا مع التحوّلات في الغرب، ولكن، كما يشير ماكغيلكريست، لم يكن ثمّة ما يشبه هذا الافتراق الهائل في الثقافة المرتبطة بعصر التنوير، بإصرارها على طريقة أفقيّة وحيدة في تصوّر العالم، وفي اختزالها كلّ القيمة المعرفيّة إلى قيم علميّة.

لقد رأى التفكير الديكارتيّ الحقيقة في "اليقين"، وجعل هذا اليقين كامنًا في الأنا. وهذا، في ما أرى، مصدر الكثير من الثنائيّات الغربيّة. "الذات"، بما هي أنا، تصير عندها محور الواقع، وتبدأ بالتفاعل مع العالم على أنّها "عالِم" يُرجِع علمَه إلى نفسه، و"مُستخدِم" مفترس للعالم من حوله.

بيد أنّنا بذلك لا نعطي إجابة على السؤال. ولعلّ [عصر] التنوير نفسه ما يحتاج إلى مزيد من الفهم. يبدو لهذا الكاتب أنّ هنري كوربان كان محقًّا عندما قال بأنّ تقصّي الذات وانعكاسيّتها المتزايدان في الغرب، يرتبطان بتهاوي العمق، والدائريّة، والسياق لتصير، جميعها، مسطّحًا واحدًا هو العالم المادّيّ الإمبريقيّ، وهذا ما يبدو أنّه قد بدأ في القرن الثاني عشر. وغير بعيد عن "تهاوي" الضمنيّ مرتدًّا إلى مستوى الصريح، نجد الزمن العلمانيّ "المعيش"، الزمن الطوليّ، و"بُعدَ المساحة" الخياليّ، المتمحور حول المراقِب.

ونحن لا نستطيع إلّا أن نربط هذه التهاويات بردّ المسيحيّة للمجال الإلهيّ إلى المجال المادّيّ الإنسانيّ، من خلال ولادة يسوع في عالم البدن، وفي الزمان التاريخيّ، الزمان العلمانيّ الطوليّ.

وإن كنّا لا نجد هذا محلًّا لمناقشة هذه الأحداث المفتاحيّة، فإنّها ترتبط، ربّما، وبنحو ما، بقيام أفلاطون وأرسطو ببتر جذور الفكر الماقبل سقراطيّ، وبدفنها بعيدًا عن الوعي الغربيّ. أضف إلى ذلك إغلاق عصر التنوير الباب على مصادر التفكير الأخرى، التي كان لها دور تحفيزيّ هائل للنهضة الأوروبيّة السابقة: الأفلاطونيّة المحدَثة، الخيمياء، والهرمسيّة. لقد سُدّت كلّ منافذ الإفلات من البارادیغم الفكريّ الغربيّ الطاغي، وظلّت كذلك إلى أن وصلنا إلى القرن التاسع عشر.

أمّا هيمنة وجهة نظر الدماغ الأيسر على هذه القرون الثلاثة فلكونها سهلة المنال. فهي الأقرب إلى العقل الواعي بذاته، المتأمّل ذاتَه. فالخبرة الواعية هي في صلب اهتمامنا. كما ويستفيد الدماغ الأيسر من أدوات الحجاج

الثلاثة، اللغة والمنطق والعلاقات الطوليّة، إذ هي، في النهاية، تحت قبضته. وهكذا يكرّس خطابُنا الواعي نسخةَ العالم التي "يعيد" تقديمها نصفُ الدماغ القادر على الكلام –الدماغ الأيسر– لا النسخة التي يقدّمها الدماغ الأيمن، الذي يرى إلى العالم على أنّه يولّد –بمقتضى ذاته– ما يعتبره الدماغ الأيسر غموضًا والتباسًا.

ما يحصل هو أنّ الدماغ الأيسر يبني، مع الوقت، أنظمةً، في حين لا يفعل الدماغ الأيمن ذلك. وهذا ما يمكّنه من أن يبلور وسائلة في فكر نسقيّ يتطوّر مع الزمن، ما يعطيه رسوخًا وصلابةً. في المقابل، ما يعرفه الدماغ الأيمن، لا "يُعطى" لغيره، بل هو يُلزم الطرف المقابل بأنّ يكون لديه فهم مسبق له، كي يتيقّظ فيه. فإذا ما عدِم هذا الفهمَ الجزئيّ، فسيغريه النظر إلى المعرفة التي تتأتّى من الدماغ الأيسر كبديل. بأيّ الأحوال، فإنّ اختزال مستويات الفكر إلى مستوًى واحد انعكس في انهدام التوازن بين نصفي الدماغ إلى أحاديّة نمط الدماغ الأيسر في الفهم.

وبالتالي، حلّت اللغة بديلًا عن الغموض المختَبَر ولايقينيّة الالتحام الأوّليّ مع سلسلة شذرات المعلومات "اليقينيّة"، والنهائيّة في ظاهرها. ثمّ تقوم "المعالجة" التحليليّة المتعاقبة بجعل الدماغ الأيسر شرطًا لابُدّيًّا للّغة المتعاقبة، ما يعطيه أفضليّة هائلة ليُسمِع صوته.

ورغم أنّ الفكر يصدر عن الدماغ الأيمن في الأغلب، فإنّ الدماغ الأيسر هو الذي يمتلك أدوات اللغة المعجميّة والتركيبيّة والإعرابيّة بحيث يسيطر على "الكلمة" عمومًا. وإذا أضفت إلى ذلك أفضليّته في التصنيف والتحليل والتفكير التسلسليّ، فإنّه يصبح قويًّا للغاية في بناء الحجّة. في المقابل، من الصعب على الدماغ الأيمن أن يُسمَع أصلًا، فما يعرفه جدّ معقّد، وصوته لا يلائم عصر "الشكّ الجذريّ". وبذا، فإنّ وجود نظام فكريّ قائم على اللغة الصريحة المتسلسلة ينزع القيمة، تلقائيًّا، عن كلّ ما لا يمكن التعبير عنه لغةً. والدماغ الأيسر يرفض كلّ ما لا يمكن الوصول إليه بواسطة عقلانيّته الخاصّة به، ويسقطه من كلّ اعتبار.

بهذا نختم مجازنا، أسطورتنا. وكما كلّ أسطورة، ليس المراد أن يؤخَذَ بها حرفيًّا؛ بل المغزى فيها أن تخدم كواسطة لفهم المضمر. ولا يُراد أن يُعمَل بموجبها، بل يستحضرها ماكغيلكريست لكي يقول شيئًا مهمًّا حول العالم الذي نسكنه. لا أقلّ، فإنّ سرديّته تؤكّد على مدى قبض نمط الدماغ الأيسر على التفكير الغربيّ، ولكن ربّما، كذلك، على بعض التوجّهات في الفكر الإسلاميّ. هو يقول، بصراحة، إنّه متى ما استحكم نظام مماثل، فإنّه يشتغل كصالة من المرايا، قد سُدّت فيها كلّ المخارج، ونحن محتجزون فيها رغمًا عنّا. وهو متشائم في ما خصّ قدرتنا على إيجاد المخرج.

أمّا أنا أرى أنّ إرث الإمام القابض على جوهر التوازن بين النصفين، مع وعيه لأسبقيّة الدماغ الأيمن، هو أهمّ حدث فكريّ لقرون خلت. كيف نحفظ هذا الإرث؟

لقد آمن لودفيغ فتغنشتاين، المشتغل في سبيل يختلف عن سبيل هايدغر، بأنّ العمليّة الفلسفيّة الغربيّة تحتاج أن تشتغل ضدّ نفسها؛ يجب أن تُحمَّد وتُنهى. وقد رأى حاجةً لمعارضة مخدِّر العقل الراضي عن ذاته، يجب أن يفيق الإنسان للدهشة، ولعلّ الشعوب كذلك. لكن كيف نقوم بذلك؟ لعلّ الأسطورة التي قد قمت بسردها تعطينا بعض الإشارات، وأكثرها، بإيماني، مُتضمَّن في رؤية الإمام الخمينيّ.

فالوظائف الدماغيّة، في واقع الأمر، يمكن تناوبها بين النصفين، في ما خصّ الفرد، وعلى المستوى الجمعيّ كذلك. أمّا الدماغ الأيمن فيتَفَعَّلُ بالتأسّي بشخصٍ أو برمز. وتكمن القدرة على المحاكاة في استقاء النسخةِ القوّةَ من الأصل، إلى الحدّ الذي تنتضي فيه شخصيّته وقدرته. ولكن، ولتحديد أكبر، فإنّنا نجد، في "الرياضات" الروحيّة للأفلاطونيّة المحدَثة، الممارسات التي قد صُمِّمت خصّيصًا للتغلُّب على لغة نسخة التفكير الدماغ–أيسريّ، ومنطقها وجمودها. وعلى حدّ سواء، فإنّ أفلوطين، الذي نرى تأثيره في كتابات الإمام الخمينيّ، يركّز كثيرًا على القيم المندمجة مع طريقة الحياة، طريقة الوجود كمفتاح للانتقال من الوعي اليوميّ "المخدَّر" إلى وعي أكثر انحيازًا إلى ذات المرء الحقيقيّة.

ويتردّد صدى هذا التأكيدِ على "بنية" القيمة، وعلى "نحو العيش" المرتبط به، في رؤية الإمام الخامنئي للتراتبيّة الهرميّة للقيم، حيث قيم المرتبة العليا وحدها قادرة على أن توصلنا إلى مجتمع أخلاقيّ حقيقيّ. ففي محاضرة له، في محضر جمع من المفكّرين في تشرين الثاني الماضي، تكلّم المرشد الأعلى حول التراتبيّة المذكورة، بدءًا بالقيم الملائمة للوعي اليوميّ، الممسك بالعالم لأجل الغايات العمليّة، وصولًا إلى القيم الملائمة للعلم، وصعودًا إلى قيم أعلى وحدها القادرة على إيجاد المجتمع الأخلاقيّ. ثمّ قابل الإمام بين نظام القيم التصاعديّ في الإسلام، المتجذر في فهمنا لتلازم الأخلاقيّة مع أعلى مستويات القيمة فحسب، مع القيم الحاكمة في عالم اليوم، مع التراتبيّة المتسافلة للقيم التي ماهيناها قبل مع نمط الدماغ الأيسر في التفكير الذي يختزل كلّ قيمة إلى أساس في المنفعة.

حتمًا، فإنّ المفتاح في الانتقال إلى نمط الدماغ الأيمن، الوحيد القادر على إيلاجنا سلّم القيم، يكمن في دائرة المضمر دون المصرّح، وهذا ما يقتضي حمل إرث الإمام الخميني، ومتابعته في تقديره للعمق، في مقاربته للمضمر، وفي الأسبقيّة التي يعطيها للخبرة المعيشة في عالم مترابط. هكذا نعيد تراصّ الأبعاد المتهاوية من "الوجود" في تمييز لها عن واحديّة البعد المادّي للوجود، ونشعر مجدّدًا بدائريّة الوجود وعمقه.

ولعلّنا باستعمالنا للغة قادرة على تجاوز الإمكانات المحتجَزة للّغة (بسبب تلازمها مع الدماغ الأيسر)، وبالاستعانة الواسعة بالأسطورة بما هي حامل للمضمَر، وباللجوء إلى السرديّة النموذجيّة، بما هي فهم للقوى الخارجيّة غير المرئيّة التي يقع السلوك البشريّ ضحيّتها، ومن خلال المجاز، نستطيع أن نعبّر عن المعنى غير الصريح. كما

ويساعدنا اللجوء إلى المفارقات والشعر والصور الخياليّة في تهديم المنطق الصوريّ المعاصر المنبني، إذا جاز التعبير، على مبدأ الثالث المرفوع، الذي يقوم بحذف كلّ احتمالات البينيّة.

وربّما، أيضًا، بإصرارنا على أهمّيّة الإدراك، والرؤية الخلاليّة، وعلى توسعة مجال التركيز بحيث نرى السياق، وعلى العلاقات البينيّة حيث يتموضع "الشيء" –رغم صعوبات الفهم الكلّي لما ندركه– قد نستطيع أن نتفلّت من "رباط" نمط التفكير الدماغ–أيسريّ المغلق.

ولعلّ هذا التفلّت يكمن في تقديم الإمام للتجربة على النظريّات حول التجربة، وفي إصراره على الجمع بين الحاجات المتضاربة، وفي إحساسه بأنّ الكلّ في عمليّة تغيّر وسيولة، عوضًا عن السكون، وفي فهمه بأنّ كلّ الأشياء تحوي طاقة الحياة.